الفصـل الأول

القدس وعقائد ثلاث

محمود أحمد محمد إبراهيم

من بين كل مشاكل العالم، تشكل قضية القدس المفصل الأعظم، عاطفة وتفجرًا، فهي لا تشابه القضايا الأخرى في الصراع العربي - الإسرائيلي، حيث تتجاوز أهميتها ومداها الوطن العربي وشعوبه، فمدينة القدس فريدة من بين كل مدن العالم لارتباطها بالشرائع السماوية الثلاث، وهي الموروث الروحي والديني لنصف الجنس البشري.

لا تكمن أهمية القدس في الأماكن المقدسة: المساجد، والكنائس، والمعابد، فحسب، وإنما أيضًا، لأصحاب الشرائع السماوية مصالح حيوية في الحفاظ على الوجود الحي لورثة معتقداتهم في المدينة المقدسة[1].

اكتسبت القدس، عبر تاريخها، أهمية دينية وحضارية، وروحية فريدة، بحكم صلة الديانات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلامية بها، وبحكم علاقاتها بنشوء هذه الأديان وتاريخها، حتى أصبحت تضم العشرات من الأماكن التي يقدسها أتباع الديانات الثلاث[2].

شكلت القدس، دائمًا وعبر التاريخ، بؤرة صراع بين الديانات السماوية الثلاث، ولم يحسم هذا الصراع إلى يومنا هذا، فانتصار المسلمين في ظل الدولة الأيوبية، بقيادة صلاح الدين الأيوبي، على الصليبيين، في عام ١١٨٧، وضع القدس تحت السيادة الإسلامية، إلى حدود عام ١٩١٧، وهو التاريخ الذي تزامن مع نجاح زعماء الصهيونية في الحصول على «وعد بلفور»، القاضي بإنشاء «وطن قومي» لليهود في فلسطين[3].

من هنا، تناقش الدراسة أطروحة أو مفهوم أهمية القدس لدى أصحاب الشرائع السماوية الثلاث.

أولًا : القدس في اعتقاد المسلمين

القدس في الاعتقاد الإسلامي لها مكانة دينية مرموقة، اتفق على ذلك المسلمون، بجميع طوائفهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، فهو إجماع الأمة كلها من أقصاها إلى أقصاها، ولا غرو أن يلتزم جميع المسلمين بوجوب الدفاع عن القدس، والغيرة عليها، والذود عن حماها، وحرماتها، ومقدساتها، وبذل النفس والنفيس في سبيل حمايتها، ورد المعتدين عليها. وقد اختلف المسلمون، والعرب، ومنهم الفلسطينيون، في الموقف من قضية السلام مع إسرائيل: هل يجوز أو لا يجوز؟ وإن جاز؛ فهل ينجح أو لا ينجح؟ ولكنهم جميعًا ـ مسلمين وعربًا ـ لم يختلفوا حول عروبة القدس، وإسلاميتها، وضرورة بقائها عربية ـ إسلامية، وفرضية مقاومة المحاولات الإسرائيلية المستميتة لتهويدها، وتغيير معالمها، ومسخ شخصيتها التاريخية، ومحو مظاهر العروبة والإسلام والمسيحية منها. فللقدس قدسية إسلامية، وهي تمثل في حس المسلمين ووعيهم الإسلامي: القبلة الأولى، وأرض الإسراء والمعراج، وثالثة المدن المعظمة، وأرض النبوات والبركات، وأرض الرباط والجهاد[٤].

يصدر التعلق الروحي للمسلمين بالقدس عن دمجه العميق للمثلث المؤلف من مكة المكرمة، والمدينة المنوَّرة، وبيت المقدس، داخل جغرافية الإسلام الروحية، المنجذبة بقوة نحو البيت العتيق، البيت الحرام، الذي يشير المعتقد الإسلامي إلى أن سيدنا إبراهيم، أبا الأنبياء، قد بناه، ومعه ابنه إسماعيل، والأساس في هذا التصور أن المسجد الحرام يتبادل الموقع المركزي مع القدس (المسجد الأقصى)، في وحدة عضوية ما بين تكويناتها الثلاثة، إذ إن هناك في المتخيل الإسلامي وحدة عميقة بين أطراف الجغرافية المقدسة الإسلامية، وهو ما عبر عنه ماسينيون بقوله: «ما من مسلم مؤمن يقبل التنازل عن الخليل، ولا عن القدس خصوصًا، وهي ثالث الحرمين بين مكة والمدينة»[٥].

هذا يعكس التصور الإسلامي لوحدة الأصل الإبراهيمي في الأديان السماوية الثلاثة، ولعل الاعتقاد الراسخ بتلك المنظومة الجغرافية المقدسة، هو ما دفع المسلمين إلى أن يجعلوا جميع الأماكن والأبنية المقدسة في العالم الإسلامي تحاكيها رمزيًا. وقد تجلت تلك الوحدة بين مكة (المسجد الحرام)، والمدينة المنوَّرة (المسجد النبوي)، والقدس (المسجد الأقصى)، في الكثير من المعاني والرموز التي أسبغها المسلمون على تلك الأماكن المبجلة.

لعل الإسراء والمعراج أول تجسيد لوحدة تلك المنظومة الجغرافية، فكانت استعادة لرحلة النبي إبراهيم الخليل إلى الكعبة (مكة)، ومنها إلى الخليل، حيث كانت رحلة سيدنا إبراهيم إسراءً أرضيًا، سبقت رحلة «إسراء» سيدنا محمد ﷺ روحيًا من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى، ومنه عُرج به إلى السماء، وليتمم بذلك قوس القدسية لرحلة جدّه إبراهيم، من الأقصى إلى البيت الحرام، برحلته المعاكسة من المسجد الحرام إلى الأرض المباركة[٦].

المدينة المعظَّمة

القدس ثالثة المدن المعظَّمة في الإسلام. فالمدينة الأولى في الإسلام هي مكة المكرمة، التي شرفها الله بالمسجد الحرام. والمدينة الثانية في الإسلام هي طيبة، أو المدينة المنوَّرة، التي شرفها الله بالمسجد النبوي، والتي ضمت قبر الرسول ﷺ. والمدينة الثالثة في الإسلام هي القدس أو بيت المقدس، والتي شرفها الله بالمسجد الأقصى، الذي بارك الله حوله، وفي هذا صح الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا». صدق رسول الله ﷺ.

فالمساجد كلها متساوية في مثوبة من صلى فيها، ولا يجوز للمسلم أن يشد رحاله، بمعنى أن يعزم على السفر والارتحال للصلاة في أي مسجد كان، إلا للصلاة في هذه الثلاثة المتميزة. وقد جاء الحديث بصيغة الحصر، فلا يقاس عليها غيرها.

أعلن القرآن عن أهمية المسجد الأقصى، وبركته، قبل بناء المسجد النبوي، وقبل الهجرة بسنوات، وقد جاءت الأحاديث النبوية تؤكد ما قرره القرآن، منها الحديث المذكور، وحديث آخر معناه أن: الصلاة في المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة في غيره من المساجد، ما عدا المسجد الحرام، والمسجد النبوي (متفق عليه). ومنها، ما رواه أبو ذر، أن النبي ﷺ سئل: أي المساجد بُني في الأرض أولًا؟ قال: «المسجد الحرام»، قيل ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» صدق رسول الله ﷺ. والإسلام حين جعل المسجد الأقصى ثالث المسجدين العظيمين في الإسلام، وبالتالي أضاف القدس إلى المدينتين الإسلاميتين المعظمتين: مكة والمدينة، إنما أراد بذلك أن يقرر مبدأً مهمًا مبادئه، وهو أنه جاء ليبني، لا ليهدم، وليتمم، لا ليحطم، فالقدس كانت أرض النبوات، والمسلمون أولى الناس بأنبياء الله ورسله[٧].

بركة أرض بيت المقدس

ترجع بركة أرض بيت المقدس إلى كون هذه الأرض مبعث كثير من الأنبياء، كداود، وسليمان، وعيسى (عليهم السلام)، وهي مهبط الملائكة، لقوله ﷺ: «يا طوبى للشام، يا طوبى للشام». قالوا: «يا رسول الله وبم ذلك؟» قال: «تلك ملائكة الله باسطة أجنحتها على الشام». رواه الترمذي، وأحمد، والحاكم.

يرقد في فلسطين كثير من الأنبياء، منهم أبو الأنبياء إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وقبره معروف في مدينة الخليل، وقد أوصى بعض الأنبياء بأن يُدفن فيها، وبعضهم طلب من الله أن يدفن في أرض قريبة منها، قال النووي:

«وأما سؤاله ـ أي موسى (عليه السلام) ـ الإدناء من الأرض المقدسة، فلشرفها، وفضيلة من فيها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم»، ولكونها أرض المحشر والمنشر. روى الإمام أحمد، بسنده عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت: «يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس». فقال: «أرض المحشر والمنشر»، وهي كذلك أرض الحساب، ووضع الموازين للناس. قال أبو عبد الله المنهاجي: وتوضع الموازين يوم القيامة ببيت المقدس، وينفخ إسرافيل في الصور ببيت المقدس، ويتفرق الناس من بيت المقدس إلى الجنة والنار». وقال ابن الجوزي: قال كعب: «العَرْض والحساب ببيت المقدس»[٨].

القدس جزء من أرض فلسطين، بل هي غرَّة جبينها، وواسطة عقدها، ولقد وصف الله هذه الأرض بالبركة، في خمسة مواضع في كتابه:

أولها: في آية الإسراء، حين وصف المسجد الأقصى بأنه ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ (الإسراء:١).

ثانيها: حين تحدث في قصة خليله إبراهيم، فقال (سبحانه وتعالى) ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء : ٧١).

ثالثها: في قصة موسى (عليه السلام)، حيث قال عن بني إسرائيل، بعد إغراق فرعون وجنوده (قال تعالى):

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ (الأعراف: ١٣٧).

رابعها: في قصة سليمان، وما سخّر الله له من ملك، لا ينبغي لأحد من بعده، ومنه تسخير الريح، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ (الأنبياء: ٨١).

خامس ها: في قصة سبأ، وكيف منّ الله عليهم بالأمن والرغد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ (سبأ: ١٨).

فهذه القرى التي بارك الله فيها هي قرى الشام، وفلسطين. قال المفسر الآلوسي: «المراد بالقرى التي بورك فيها: قرى الشام، لكثرة أشجارها، وثمارها، والتوسعة على أهلها». وعن ابن عباس: «هي قرى بيت المقدس». وقال ابن عطية: «إن إجماع المفسرين عليه».

ذهب عدد من مفسري القرآن، من علماء السلف والخلف، في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين: ١-٣)، إلى أن التين والزيتون يقصد بهما الأرض أو البلدة التي تنبت التين والزيتون، وهي بيت المقدس[٩].

من هنا تنبع أهمية القدس لدى المسلمين، ولكن هذا لا يدعنا نغفل حقيقة مهمة، هي كل المحاولات المعاصرة التي نراها أمامنا، والتي تمتد في أيدي المسلمين، لتصافح اليهود، وتعقد معهم اتفاقات، وتطبّع العلاقات ليشتري المسلمون من وراء ذلك رضا اليهود. الذين، إذا غضبوا، غضب العالم لغضبهم، وإذا حاربوا وقف الغرب والشرق معهم، وإذا هزموا في معركة، سارع الجميع لنجدتهم، وبالرغم من ذلك، وبالرغم من التخاذل العربي الإسلامي، وبالرغم من تمييع القضية، فإن طائفة من المسلمين سوف تقوم بالمهمة، وسيتحقق النصر النهائي على أيديهم، إن شاء الله، وسيعقب الانتصار إقامة الخلافة في القدس، ففي مسند الإمام أحمد عن أبي حواله الأزدي (رضي الله عنه) قال: وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي، أو على هامتي، ثم قال: يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة، فقد دنت الزلازل، والبلايا، والأمور العظام، والساعة، يومئذ، أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك» (صححه الحاكم ووافقه الذهبي)[١٠].

ثانيا : القدس في المعتقد المسيحي

القدس مكان المسيحية، على وجه التقريب، فإن كل الأماكن والمعابد المقدسة المتصلة بحياة وميلاد وموت المسيح توجد في القدس، وفي بيت لحم المجاورة القبر المقدس، طريق الآلام، كنيسة المهد، حديقة الجثمانية، جبل الزيتون، وثمان وثلاثون كنيسة أخرى[١١].

إن مدينة أورشليم، أو القدس، تتمتع بموقع ديني متميّز عند المسيحيين عمومًا؛ ولذلك فهي في ضمير كل مسيحي، حيث كان، وقد جاءت التشريعات منذ مجمع نيقة (عام ٣٢٥ م) تؤكد على أهمية المدينة، وعلى موقع كنيسة أورشليم، ورئيسها بالنسبة لباقي الكنائس. ففي القانون ٧، من مجموع الشرع الكنسي، أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة جاء ما يلي: «ليكرم أسقف إيليه (أورشليم)، دون أن تمس حقوق المتروبوليت». لا غرابة في أن

المدينة المقدسة يليق لها أن تتمتع بمركز خاص ممتاز بين الكنائس المسيحية. ويظهر أن من الغرابة بمكان أن تكون هذه المدينة، في العصور الأولى، كرسيًا تابعًا لكنيسة قيصرية. ومن المحتمل أنه، نحو نهاية القرن الثاني، أخذت فكرة قداسة المكان تضفي على صاحب الكرسي في المدينة المقدسة أنها هي التي حملت آباء مجمع نيقة على سن هذا القانون[١٢].

القدس تميّز، لارتباط ثراها بنشأة، وحياة، ومدفن مريم والمسيح (عليهما السلام). وقد ذكر القاضي محيي الدين الحنبلي عن هذا الأمر ما يلي:

«أوتيت مريم (عليها السلام) فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، في بيت المقدس؟ وماتت مريم (عليها السلام) في بيت المقدس. وولد عيسى (عليه السلام) وتكلم في المهد في بيت المقدس، وأنزلت عليه المائدة في أرض بيت المقدس. ورفعه الله إلى السماء من بيت المقدس» [١٣].

كما أورد «العهد الجديد» نصوصًا تتحدث عن معجزات للسيد المسيح (عليه السلام)، حصلت في القدس، منها ما يلي:

«وبعد هذا كان عيد اليهود، فصعد يسوع إلى أورشليم. وأن في أورشليم عند باب الغنم بركة تسمى بالعبرانية بيت جسدا، لها خمسة أروقة. وكان مضطجعًا هناك جمهور كثير من المرضى من عميان، وعُرج، ويابسي الأعضاء، ينتظرون تحريك الماء. وكان ملاك الرب ينزل، أحيانًا، في البركة ويحرك الماء، فالذي كان ينزل، أولًا، وبعد تمويج الماء كان يبرأ من كل مرض مسه».

عند عين سلوان في القدس معجزة كذلك. قال هذا وتفل على التراب وصنع من تفلته طينًاوطلس بالطين عيني الأعمى، وقال له: اذهب واغتسل في بركة سلوان الذي تفسيره المرسل، فمضى، واغتسل، وعاد بصيرا [١٤].

المسيح (عليه السلام) الذي جاء يصحح ما أفسده يهود، دخل بيتًا لهم في القدس، ليطهّره من رجسهم، ورذائلهم، هذا ما ورد في إنجيل لوقا: «وجاء إلى أورشليم، فدخل الهيكل، وجعل يخرج الذين يبيعون ويشترون في الهيكل. وقلب موائد الصيارفة، وكراسي باعة الحمام. ولم يدع أحدًا ينقل متاعًا في الهيكل. وكان يعلمهم، قائلًا أليس مكتوبا أن بيتي، بيت صلاة، يدعى لجميع الأمم، وأنتم جعلتموه مغارة للصوص» [١٥].

في القدس، وفي المكان الذي شهد رفع السيد المسيح (عليه السلام)، أقيمت كنيسة القيامة، التي تم بناؤها من قبل هيلانة، أم قسطنطين الثاني، بعد أن اعتنق المسيحية. والكنيسة أقيمت على أنقاض المعابد الوثنية، التي كان قد بناها الرومان، وقد استغرق بناؤها حوالي عشر سنوات، وقد تم تدشينها في الثالث عشر من سنة ٣٣٥م، وبعدها باتت مقدسًا لكل حاج مسيحي إلى بيت المقدس [١٦].

موقف الفاتيكان من القضية

لم يكن مستَغْرَبًا أنَّه في الوَقت الذي يحيا فيه الشَّعب الفلسطيني الذِّكرَى الستِّينَ لِنَكبَتِه واغتصاب أرضه على أيدِي عصابات القَتل والإرهاب الصّهْيَوْنِيَّة، التي ارتكبت بحقِّه المجازِرَ والمَذَابِح ـ أن يُعرِب بابا الفاتيكان، بنديكت

السَّادس عشر، عن أمنياته الصَّادقة بمناسبة «الذكرى الستِّينَ لإقامة دولة إسرائيل»، «شاكرًا الرَّبَّ لامتلاك اليهودِ أرضَ أجدادِهم»..!

خطيئة الشَّعب الَّذي رفض المسيح

كانت الكنيسة تنظر لليَهوديَّة، على مَدار القرون الماضيَة، على أنَّها دين الماضي، فهي لم تعد شَريعَة سارية، بعد أن نسخها «العَهدُ الجديد»، كما اتَّهَمَت الكنيسةُ اليهودَ بأنَّهم قَتَلَة المسيح، وهو ما جعل الأرض ممهَّدة لكراهية اليهود.

فقد أصدر البابا، غريغوري الثالث عشر، عام ١٥٨١م، حُكمًا بإدانة اليهود، نصَّ على «أنَّ خطيئةَ الشعب، الذي رَفَض المسيحَ، وعَذَّبه، تزداد، جيلًا بعد جيل، وتحكم على كل فرد من أفراده بالعبوديَّة الدَّائمة». وسار على هذه السياسة الباباوات، من بعده؛ ولذلك كان من الطبيعي أن يعمل اليهودُ على استهداف الكنيسة الكاثوليكية، والسَّعي إلى تقويض نفوذِها في فرنسا، تمهيدًا للانقضاض على الحصن الكاثوليكي في روما بالذَّات.

استمرَّ هذا المفهوم، مع نشأة الكِيان الصّهيوني؛ فقد رفض الفاتيكان الدعوات البروتستانتيَّة التي تقول إن «على كل مسيحي أن يَهتَمَّ بإعادة اليهود إلى أرضهم في فلسطين، والتي هي أرض آبائهم وأجدادِهم».

حدثت مواجهة بين الحركة الصهيونيَّة والبابويَّة، مُمَثَّلة بالبابا «بيوس العاشر»، الذي رفض الموافقة على المشروع اليهوديِّ ـ الصّهْيوني، في جعل القدس مركزًا لدولة يهوديَّة، وأكَّد على البيان الذي كان أصدَرَه الفاتيكان، عند انعقاد مؤتمر «بازل»، في سويسرا، وأوضح فيه أن «جعل القدس مركزًا لدولة يهوديَّة يتعارض مع نبوءات المسيح نفسه». كما أنه أكَّد ـ أثناء لقائه مع هرتزل، في اللِّقاء الذي حدَث بينهما (سنة ١٩٠٤) ـ على مواقف الكنيسة الكاثوليكية من الحركة الصِّهْيونيَّة، وذلك بقوله: «لا أستطيع، أبدًا، أن أتعاطف مع هذه الحركة الصّهْيونيَّة؛ فنحن لا نستطيع أن نمنع اليهود من التَّوجه إلى القدس؛ ولكن لا يمكننا، أبدًا، أن نقرَّه، إنني بصفتي قيِّمًا على الكنيسة، لا أستطيع أن أجيبَك في شكل آخَر، لم يعتَرِف اليهود بسيِّدنا، ولذَلك لا نستطيع أن نعترف بالشَّعب اليهوديِّ»، وتاليًا: «فإذا جئتم إلى فِلَسْطين، وأقام شعبُكم هناك، فإننا سنكون مستعدِّين، كنائس ورُهبانًا، لتَعميدِكم جميعًا».

في هذا اللقاء، قال هرتزل: «إنَّ النكبات والاضطهادات لم تكن ـ في اعتقادي ـ خيرَ وسيلة لإقناع قومي بما يكرهون». فردَّ البابا: «إن سيدنا يسوع المسيح أتى إلى هذا العالم ولا قوَّة له ولا سِلاح؟ وهو لم يضطهد أحدًا، وإنما هو الذي تعرَّض للاضطهاد، وتخلَّى عنه الناس».

إذا كان هذا المقطع من كلام البابا بيوس العاشر يمثِّل ردًّا على ادعاءات هرتزل، فإنَّ البابا قد أوضَح، في مقطع آخر من الحديث نفسه، المعتقد المسيحي، وموقف الكنيسة من اليهود، ما نصه: «أمَّا أن يَظلَّ اليهود محتفظِين بمعتقَدِهم، ينتظرون مجيء المسيح، والمسيحُ عندنا قد جاء، وتَمَّت بعثته للبشر، في هذه الحالة نعتبر اليهود منكرين للاهوت يسوع المسيح، ولا مجال هنا لمساعدتهم، لا في فلسطين ولا في غيرها، وهذا هو الوجه الأوَّل والآخر أن يذهبوا إلى فلسطين شعبًا بلا دينٍ، بالإطلاق، وفي هذه الحالة نَجد أنفسَنا في مجال أضيق، وغير مستعدِّين لمؤازَرَتهم».

وثيقة «١٩٨٥» تمهد لتطبيع العلاقات

هَكذا ظلَّت العلاقات متوتِّرة بين الفاتيكان و«إسرائيل»، منذ الحقبة النازية حتى حلول عام ١٩٩٤، عندما أقيمَت علاقات دبلوماسيَّة بين البلدين، والذي سبق بإصدار البابا، يوحنا بولس الثاني، ما عرف «بوثيقة ١٩٨٥».

تقول الوثيقة ـ وفقًا لكتاب «التاريخ اليهودي العام» لصابر طعيمة: «لا يتوقَّف الأمر فقط على استئصال رواسب العداء للسامية، هذا العداء الذي ما زال قائمًا، إلى الآن، في نفوس المسيحيِّين الكاثوليك؛ بل أن يضمن لهم، من خلال مجهود تربويٍّ، فهمًا صحيحًا للعلاقات الفريدة التي تربطنا بها كنيستنا بالعبرانيين والعبريَّة». ترد في الوثيقة: إنَّهم «يرثون للجهل المحزن لتاريخ وتقاليد اليهودية، هذه التقاليد التي تظهر فقط الأوجه السلبية منها، والتي كثيرًا ما تكون مضحكة، هي وحدها التي تظهر في الفهم العادي الشائع عند الكثيرين من المسيحيين». وتشفع الوثيقة لليهود، فتقول: «إنه لا يجوز أن يحسب شأن اليهود اليوم؛ كشأن الذين عرفوا المسيح ولم يؤمنوا به». تستطرد: «إن المسيح كان عبرانيًّا، وسيكون كذلك دائمًا» ! وتدعو كاثوليك العالم «ليفهموا تمسُّك اليهود الدِّيني بأرض أسلافِهم» ! وتصل الوثيقة ذروة هدفها، بالقول: «إن الشَّعبَين: المسيحي، واليهودي، على الرغم من أنَّهما ينطلِقان من وجهات نظر مختلفَة، غير أنهما يتجهان نحو أهداف متماثلة، تركِّز على مجيء المسيح أو عودة المسيح» ! وتختم الوثيقة: «إنَّه من الضَّروري أن نتقدَّم لحمل مسؤوليَّة تهيئة العالم لذلك لحضور المنقِذ». إلاَّ أنَّ الفاتيكان أصرَّ على رأيه بأن سيطرة اليهود على القدس أمر غير أخلاقيٍّ وغير قانونيٍّ، وهو الموقف الذي يصعب التخلِّي عنه في ظل رعاية الفاتيكان للمسيحيين العرب هناك.

مُواساة اليهود وتبرئتهم

لكنَّ البابا، يوحنا بولس الثاني، وفي خطوة تاريخيَّة لم يكن يحلم بها اليهود، اعترف عام ٢٠٠٠ بذنب الكنيسة تجاه معتنِقي الديانة اليهوديَّة في العالم، وطلب صفحهم عن كل ما حاقَ بهم من آلام، على مدار القرون الماضية، لكنَّه لم يُحمِّل الباباوات السابقين مسؤولية توسيع رقعة الفكر النازي، والهولوكست، ومعاداة السامية. وفي أغسطس/ آب ٢٠٠٥، أثبت البابا بنديكت السادس عشر، أنه يسير على خطى سلفِه في التَّقرُّب من اليهود، حيث دخل، للمرَّة الأولى في تاريخ البابوية مَعبَدًا يهوديًّا داخل ألمانيا، مَعقِل النازيَّة، ولم تكن مصادَفَة أن ذلك اليوم كان يوم إحياء ذكرى مَقتل يهود مدينة كولونيا، في فترة النازي، وأطلق الإعلام الألماني، حينئذ، على بنديكت لقب «البابا الثاني لليهود»، مثلما وصف يوحنا بأنه «بابا اليهود الأول»، بسبب تعَاطُفِه معهم. جاء في البيان الذي أقره، بنديكت السادس عشر، وصاغ جزءًا منه، بحسب ما أكدته مصادر بالفاتيكان: «إن علاقات الكنيسة مع اليهود لا تزال تستند إلى البيان التاريخي لمجمع الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٥، الذي نبذ مفهوم المسؤوليَّة الجماعية لليهود عن دم المسيح، ودشن حوارًا معهم». أضاف أن الكنيسة «ترفض أيَّ موقف ازدراء أو تمييز ضدَّ اليهود؟ وتنبذ بشدة أيَّ نوع من معاداة السامية». وقالت مصادر كاثوليكية ويهودية: «إن البيان سُلِّم إلى أمانة مكتب كبير حاخامات إسرائيل». وقال الفاتيكان: «إنه يأمل أن تساعد التوضيحات التي وردت في هذا البيان على تصفيَة أيِّ سوءِ فَهم، إنه يجدِّد التأكيد على رغبة لا تتزعزع في أن يستمر تطور التقدم الملموس الذي تحقق بخصوص التفاهم المتبادَل ونمّو الاحترام بين اليهود والمسيحيين»[١١].

الكنيسة الأورثوذكسية وبيع الأراضي العربية

الفضيحة التي نشرت عنها صحيفة «معاريف» (١٨/ ٣/ ٢٠٠٥)، عن قيام البطريركية اليونانية الأورثوذكسية في مدينة القدس ببيع جزء من أملاك الطائفة إلى مستثمرين يهود، بينما هذه الأملاك تابعة لأبناء الطائفة الأورثوذكسية، الذين يعيشون في فلسطين كلها، وليست ملكًا لأي دولة. وبما أن السواد الأعظم من الأورثوذكس في فلسطين هم فلسطينيون عرب، فإن هذه الأملاك تأخذ، إضافة إلى طابعها الديني، طابعًا قوميًّا، وتاريخيًّا، يجب عدم التنازل عنه. وكما قال الأرشمنديت، عطا الله حنا، فإن: «الكنيسة الأورثوذكسية هي كنيسة مشرقية أصيلة. وجزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني وقضيته، ومن يفرط بالأوقاف، ويتآمر ضد القضية الفلسطينية لا يمثلنا وليس منا»[١٨].

كما جاء في بيان «اللجنة التنفيذية للمؤتمر الأورثوذكسي» لعرب ١٩٤٨، الذي صدر في أعقاب انتشار الفضيحة: «إننا ننظر بخطورة بالغة إلى ما قامت به البطريركية في القدس، ونرى في ذلك منعطفًا مصيريًّا، ليس فقط بالنسبة للوجود المسيحي الأورثوذكسي في البلاد، إنما أيضًا لأماننا القومية، باعتبارها قضية وطنية لها أبعاد خطيرة على مستقبل القدس وعروبتها»[١٩].

ثمة حساسية خاصة بالنسبة لأملاك الطائفة الأورثوذكسية في فلسطين، فهي تعتبر من أغنى الطوائف هنا. فقد جاء على موقع إليكتروني ـ إسرائيلي ـ مقال كتبه عومر كرمون، أن الكنيسة الأورثوذكسية الفلسطينية تملك ١٨ بالمائة من أراضي القدس الغربية، و١٧ بالمائة من أراضي القدس الشرقية، وثلاثة بالمائة من أراضي مدن اللد، والرملة، ويافا، وحيفا. ولا بد هنا من طرح تساؤل: ماذا سيحدث لهذه الأملاك إذا استمرت البطريركية اليونانية في بيع هذه الممتلكات لمستثمرين صهاينة؟

فهذه القضية تثير العديد من القضايا، التي يواجهها الشعب الفلسطيني، بجميع طوائفه، فرغم أن الكنيسة الأورثوذكسية هي صاحبة الأملاك، فإن الأرض تابعة للشعب العربي ـ الفلسطيني، بكل طوائفه وشرائحه، وليس للطائفة الأورثوذكسية فحسب.

إن التصرف بهذه الأوقاف لا يمكن أن يتم إلا بموافقة أبناء الطائفة الأورثوذكسية، الممثلين في الجمعيات والمجالس الملّية، ومجالس الطائفة، وذلك حسب المادة الحادية عشرة من «قانون بطريركية الروم الأورثوذكس المقدسية» (قانون ٢٧/ لسنة ١٩٥٨). وجدير بالذكر أن هذا القانون ينص على وجود نائب علماني للبطريرك، وثمانية أعضاء علمانيين، ينتخبهم أبناء الطائفة، وذلك لضمان عدم التلاعب بممتلكات الكنيسة، أو استغلال المنصب الديني لأهداف لا تتماشى والموقف الشعبي للطائفة. معنى هذا الكلام أن هناك إطارًا للبعد القومي العربي، وهذه الأملاك هي جزء لا يتجزأ من الأراضي العربية الفلسطينية. والتابعة لجميع شرائح الشعب الفلسطيني، بكل طوائفه وأديانه. وقد كان من الخطأ أن يقبل أبناء هذه الطائفة رفع العلم اليوناني على هذه الأملاك، الأمر الذي يجب أن يصحح حالًا، ورفع العلم الفلسطيني عليها، بدلًا من ذلك العلم.

كما أن بيع هذه الأراضي والممتلكات لمستثمرين صهاينة يخلع عنها صبغتها العربية، وتصبح صبغتها يهودية ـ إسرائيلية، وبالتالي يضعف الحق الفلسطيني في القدس، ويضعف حتى موقف المفاوض الفلسطيني، عندما يحين الوقت. ولهذا فإنه من المهم بمكان إبطال هذا البيع، بأسرع وقت ممكن، على الرغم من أن سلطات الاحتلال

الإسرائيلي لن تستجيب لمثل هذه المطالب، ولن تنصف محكمة العدل العليا العرب إذا ما تقدموا بطلب لإبطال هذا البيع، فجميعهم صهاينة، والمصلحة واحدة[٢٠].

ثالثًا: القدس في اعتقاد اليهود

إذا كانت قضية القدس تقع في مركز الصراع الإسرائيلي ـ العربي، فإنّ هذه القضية يحيط بها سوء الفهم، ومغالطات تاريخية، يشترك فيها جميع أطراف الصراع. وإحدى المغالطات في الجانب العربي الاعتقاد أنّ الادعاء الإسرائيلي بأن المدينة موحدة هي عاصمة إسرائيل، يستند إلى موقف ديني أصولي يهودي. وحقيقة الأمر أنّ التيار الديني اليهودي (الأورثوذكسي) الذي يسيطر على المؤسسات الدينية الإسرائيلية الرسمية لا يعطي اهتمامًا لقضية السيادة على القدس، بل هذا التيار لعب دورًا في إلجام محاولات التيار الصهيوني المتدين، والعلماني اليميني، السيطرة على منطقة الحرم المقدس[٢١].

بداية، لا بد من ذكر أنّ القدس ذكرت مئات المرات في كتب يهودية مقدسة، ولكنها لم تذكر، أبدًا، في «التوراة»، وتحديدًا في أسفار موسى الخمسة الأولى، التي تعتبر كتب الوحي، والأكثر قبولًا من اليهود، مقارنة بكتب الأنبياء ورجال الدين اليهود اللاحقين، ولكن يؤمن اليهود بأن النبي داود بنى هيكل سليمان، نحو ألف عام قبل الميلاد.

ورد اسم مدينة «القدس»، أو «يروشاليم» في العهد القديم أكثر من ٦٨٠مرة، وقد أطلق «العهد القديم» على المدينة عدة كنايات، مثل مدينة الرب، والمدينة المقدسة، ومدينة العدل، ومدينة السلام، وأحيانا يذكر الاسم «يبوس»[٢٢].

ومع ذلك، تتسم صورة أورشليم في «العهد القديم»، بالتناقض الشديد، فهي المدينة المقدسة، التي فَضّلها الرب على سائر المدن، ولكنها، أيضًا، المدينة النجسة الزانية، ومدينة اللعنات، والويلات، التي غرقت في الوثنية، معظم تاريخها.

هناك من يرى أن القدس ظلت لدى الأدباء اليهود، على مر العصور، رمزًا للشوق إلى الخلاص، وتعبيرًا عن كل الطموحات الروحانية، والدينية، والقومية، حيث ذُكرت في الكتابات العبرية، على اختلاف أنواعها، أكثر من أي مكان آخر. لقد تشكلت صورة القدس في أدب العصور الوسطى، ثم أدب «الهسكالاه» ـ حركة التنوير العبرية ـ ككيان رمزي تجريدي، من خلال مصادر مكتوبة، غارقة في الطابع الأسطوري والغيبي؛ لذا فقد احتفظت القدس حتى القرن التاسع عشر بصورتها المثالية الرومانسية[٢٣].

لقد تجلى الموقف الأصولي اليهودي في القدس، في مرحلة ما بعد حرب عام ١٩٦٧. فعند دخول المدينة القديمة، بعد احتلالها، رفع جنود الاحتلال العلم الإسرائيلي على قبة الصخرة، وسارع حاخامات، مثل الحاخام شلومو جورن، كبير حاخامات الجيش الإسرائيلي، إلى دخول منطقة الحرم. واقترح جورن، يومها، وكان يؤيد بناء الهيكل، وضع ١٠٠ كجم من المتفجرات لتفجير قبة الصخرة. لكن القيادة العسكرية رفضت بشدة. وعلّق جندي متدين بأنّه أوكل إليه حراسة بوابة قبّة الصخرة، في ذلك اليوم، وأنّه كان يعتقد أن مهمته حماية المكان، لحين وصول المهندسين لإزالة القبة. حاول متدينون صهاينة حث حاخامات للذهاب إلى قبّة الصخرة، وينقل إسرائيليون، كانوا يعيشون

في القدس الغربية، كيف بدأ هؤلاء بالمناداة في الطرقات بأن المسيح قد أتى! وأرسل جورن رجاله لحث حاخامات، يعتقدون إمكانية التهيئة لقدوم المسيح، مثل الحاخام زفي كوك، وديفيد كوهين، ولكن، وبعد تردد، حسم كوك أمره بالالتزام بموقف الحاخامات الرسمي، الذي يمنع بناء الهيكل، في تلك المرحلة. وفي ذات اليوم، أمر وزير الدفاع الإسرائيلي، آنذاك موشيه دايان، بإنزال العلم الإسرائيلي عن قبة الصخرة.

في عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠١، عندما وصلت مفاوضات السلام مرحلة متقدمة تتضمن الاتفاق على إعادة تقسيم القدس، لم يكن لدى حركة «شاس»، المشاركة في الائتلاف الحكومي، والقوة السياسية الثالثة في إسرائيل، آنذاك، اعتراضات دينية، بل إن أعضاء حزب الليكود، الذين قابلوا عوفاديا يوسف، القائد الروحي للحركة، لإقناعه بمعارضة الحل السياسي بالقدس، أثاروا موضوعين هما: سلامة وأمن المصلين عند الجدار الغربي تحت السيادة الفلسطينية في الحرم، وأن الحكومة الإسرائيلية، آنذاك، تقدّم مساعدات لمدارس ومؤسسات «شاس» الاجتماعية، ولم يتم إثارة موضوع السيادة على القدس، أو كونها عاصمة لإسرائيل، لمعرفتهم أنّ يوسف لا يؤمن بهذه المبادئ، شأنه شأن حاخامات إسرائيل، الذين يدعون للانتظار والصلاة، حتى تتحقق متطلبات بناء الهيكل المرتبطة بقدوم المسيح.

بالمقابل فإنّ النائب في الكنيست، أوري أرئيل، عن حزب الاتحاد القومي، (حزب غير ديني متحالف مع الصهيونية الدينية)، المتحالف مع الحزب الوطني الديني، والذي زار منطقة الحرم، في شهر أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٦، يدعو، مدعومًا بمجلس حاخامات مستوطنات الضفة الغربية، لبناء كنيسة في منطقة الحرم، دون هدم المساجد هناك[٢٤].

يطرح «مركز القدس للدراسات الإسرائيلية» فكرة إنشاء عاصمة بديلة للفلسطينيين، على أن تبقى «القدس الكبرى» إسرائيلية، مع إمكانية إعطاء سيادة خاصة للبلدة القديمة، وحكم ذاتي للأحياء العربية، وإدارة فلسطينية للحرم. وهي الرؤية نفسها، تقريبًا، التي طرحتها «وثيقة بيلين ـ أبو مازن». يتبنى مشروع رعنان ويتز، أيضًا، فكرة إقامة قدس فلسطينية، شرقي قرية شعفاط، لتستوعب ٣٠٠ ألف فلسطيني، وإنشاء طريق يربط بينها وبين القدس الحالية، تحت إدارة مشتركة، مع ضم المستوطنات إلى القدس. أما المدينة المقدسة داخل الأسوار، فيقترح ويتز أن تدار دوليًا، كما يقترح تخيير العرب المقيمين في القدس بين أن ينتقلوا إلى القدس الفلسطينية الجديدة، أو أن يبقوا في أماكن سكناهم الحالية[٢٥].

معروف أنه مع حلول عام ١٥٢٠ الميلادي دخل «الحائط العربي» إلى التقاليد اليهودية الجديدة، وصار جزءًا منها، وتحول إلى حائط لبكاء اليهود عنده.

لم يدرك السلاطين العثمانيون ما يبيته اليهود للحائط، وللقدس، وفلسطين عمومًا، وفي أجواء التسامح، أدوا طقوسًا قرب الحائط، سرعان ما أخذوا يعتبرونها حقوقًا لهم محاولين استغلال أي فرصة لتثبيتها، فقد سعوا إلى استغلال سيطرة المصريين على القدس (١٨٣٢ - ١٨٤٠)، فتقدم يهودي يتمتع بالحماية البريطانية بطلب للسماح له بتبليط الرصيف الواقع أمام الحائط، أو الزقاق المجاور له. وحين عرض الطلب على المجلس الاستشاري الذي أنشأه محمد علي باشا في القدس، رفض الطلب، وثبت محمد علي وابنه إبراهيم هذا الرفض. وطلب الأخير من متسلم

القدس أن يمنع اليهود من رفع أصواتهم أثناء طقوسهم مع السماح لهم بالزيارة، لقاء رسم محدود لمتولي الوقف، في حينه. وفي منتصف القرن التاسع عشر، بذلت الحكومة اليهودية جهودًاحثيثة للاستيلاء على الحائط، فقد حاول الحاخام عبد الله، حاخام بومباي، شراء الحائط، كما سعى الثري اليهودي، موشيه مونتفيوري، إلى استصدار إذن من السلطات العثمانية يسمح لليهود بوضع مقاعد وكراسي في المكان، ونصب أعمدة، لإقامة مظلات واقية من الأمطار. لكن مساعي مونتفيوري لم تنجم سوى عن السماح، مؤقتًا، بوضع طاولة للقراءة، قرب الحائط، أزيلت بعد فترة وجيزة، بناء على طلب السلطات الإسلامية الدينية هناك.

لاحقًا، حاول روتشيلد شراء حارة المغاربة، المجاورة للحائط، وفشلت جهوده، إلا أن اليهود كانوا يستغلون التسامح، والسماح بالزيارة على مدار الوقت، كي يتحول الأمر إلى حق ثابت، فعادوا إلى رفع أصواتهم، والبكاء، ومع حلول عام ألف وتسعمائة وأحد عشر حاولوا، مجددًا، إحضار الكراسي، للجلوس عليها أثناء البكاء، ووضعوا ستارًا بين مكان الرجال ومكان النساء ، ولكن كل ذلك أزيل، بأمر السلطات العثمانية، بعد شكوى متولي الوقف الإسلامي.

تغيرت الصورة مع فرض الانتداب البريطاني على فلسطين، (صيف ١٩٢٢)، فهذا الانتداب كان يهدف، أساسًا، إلى التهيئة لإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وكان نورمان بنويش، وهو أحد كبار موظفي حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين، يعتبر «أن أكبر محفل ديني لاجتماع اليهود في القدس هو الحائط الغربي».

استغل اليهود الصهاينة تأييد حكومة الانتداب لهم، وعادوا إلى وضع أدواتهم أمام الحائط، ما فجّر غضب المسلمين الذين واجهوا هذا الوضع، عام ألف وتسعمائة وخمسة وعشرين، مطالبين بإزالة ما وضعه اليهود من أدوات أمام البراق، لكن هؤلاء واصلوا البكاء والصراخ، مع تركيز أدواتهم عند الحائط، وهو ما فجّر هبّة البراق، سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين، التي أسفرت عن مقتل مائة وثلاثة وثلاثين مستوطنًا صهيونيًا، واستشهاد مائة وستة عشر مواطنًا فلسطينيًا[٢٦].

بعد هبّة البراق، جاءت لجنة تحقيق دولية إلى فلسطين، مارست اللجنة عملها، منذ ١٩ يونيو/ حزيران ١٩٣٠م، وأصدرت تقريرها في أول ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٠م، وجاءت النتائج، التي توصلت اللجنة إليها، قاطعة في شأن الحق العربي على «حائط البراق». فقد انتهت اللجنة إلى «أن حق ملكية الحائط، وحق التصرف فيه، وما جاوره من الأماكن المبحوث عنها في هذا التقرير عائد للمسلمين. ذلك أن الحائط نفسه هو ملك للمسلمين، لكونه جزءًا لا يتجزأ من الحرم الشريف. كما أنه ثبت للجنة أن الرصيف الكائن عند الحائط، حيث يقيم اليهود صلواتهم، هو، أيضًا، ملك للمسلمين». كذلك ثبت للجنة أن المنطقة التي تكتنف الرصيف المذكور قد وقفها على المسلمين الملك الأفضل، بعد صلاح الدين الأيوبي، حوالي سنة ١١٩٣ بعد الميلاد. وأعطت اللجنة لليهود حرية السلوك إلى الحائط، لإقامة التضرعات، دون جلب أي أدوات. مع ذلك واصل الصهاينة التحرش بالبراق، حتى كان عدوان يونيو/ حزيران ١٩٦٧ م واحتلال القدس.

هذا هو حائط البراق، الذي صنع اليهود من تسامح المسلمين معهم في الصلاة قبالته، من خارج ساحة الحرم الشريف، ومبناه حقًا مكذوبًا، وقداسة مزعومة، وخرافة تاريخية، يطالبون، بناء عليها، اليوم، بأن تكون لهم ملكية جزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى، أو السيادة الكاملة عليه[٢٧].

التهوين من قدسية القدس

أكد الدكتور حسن عبد الرحمن سلوادي، عميد كلية الآداب في جامعة القدس، أن المستشرقين اليهود يقومون بجهود حثيثة، ومكثّفة، ضمن مخطط مرسوم، هدفه التهوين من قدسية القدس، ومكانتها في الإسلام من جهة، وتوكيد أهميتها ومركزية النظرة إليها من التصورات اليهودية من جهة أخرى. أضاف السلوادي أن ما يطرحه المستشرقون والكُتاب اليهود يشكل الغطاء الإيديولوجي والأرضية الفكرية التي تنطلق منها سلطات الكيان الصهيوني، لتنفيذ سياستها وممارساتها الرامية لطمس معالم المدينة وتهويدها. جاء ذلك من خلال بحث للدكتور السلوادي بعنوان: «المستشرقون اليهود ومحاولة التهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام» قُدم خلال مسابقة حول القدس نظمتها جمعية القدس للبحوث والدراسات في غزة، وقد نال البحث الجائزة الأولى[٢٨].

البعد الديني

أوضح الباحث أن المستشرقين ينطلقون جميعًا من نقطة بدء واحدة، هي أن قداسة القدس، وما يرتبط بها من معتقدات، وتصورات لا تتسم بالأصالة، ولا تعزى إلى عوامل ذاتية نابعة من صميم الديانة الإسلامية، وإنما هي مجرد تقاليد لما تقرر بشأن هذه القداسة في الأصول الدينية، والتصورات العقدية في الديانة اليهودية.

يضيف أن المستشرقين اليهود حاولوا زعزعة المكانة التي تحتلها القدس في التطورات الإسلامية، والتشكيك في أهميتها، ومكانتها لدى المسلمين، ولعل من أبرز محاولاتهم تأويل النصوص القرآنية، بطريقة تتلاءم مع أهدافهم، وإبراز التناقض في الروايات الحديثية، والتشكيك في الأحاديث النبوية، التي أجمع المسلمون على صحتها.

يشير الباحث إلى (سورة الإسراء)، والتي تتضمن إشارة صريحة إلى رحلة الإسراء والمعراج، والتي تحدث بها علماء المسلمين، بإسهاب، عن دلالات هذه المعجزة، وكيف كانت إرهاصًا وإعلانًا مبكرًا عن القيم الإسلامية للمدينة المقدسة. وقد حاول اليهود استغلال الاختلاف في الأنباء حول رخص الإسراء والمعراج، هل هي بالجسد والروح معًا، أو بالجسد فحسب، ويؤكد الباحث أن هناك إجماعًا لدى علماء المسلمين على أن الرحلة حق لا يعتريه باطل، وأن المسجد الأقصى المذكور في الإسلام هو عين الموجود في بيت المقدس، وذلك خلافًا لما ذهب إليه بعض المستشرقين، الذين استغلوا الاختلاف في الأنباء حول طبيعة الإسراء والمعراج، وعمدوا إلى تأويل الآية، تأويلا ينفي عن القدس سببًا من أهم أسباب قداستها، ومكانتها المميزة في الإسلام.

تتلخص فكرة التأويل، كما يشير الباحث، في أن المسجد المذكور في الآية الكريمة، أينما هو، مكان في السماء، وليس الذي بني، فيما بعد، في مدينة بيت المقدس. ويورد السلوادي قولًا لأحد المستشرقين، وهو إسحاق حسون، يقول فيه: «أما إسحاق حسون فيؤكد من جهته أن علماء المسلمين لم يتفقوا جميعًا على أن المسجد الأقصى هو مسجد القدس، إذ رأى بعضهم أنه ممر في السماء، يقع مباشرة فوق القدس، أو مكة، وهو يستعين في ذلك بما كتبه المستشرق الفرنسي ديمومبن، حاول من خلاله التمييز بين القدس السماوية، والقدس السفلى».

يشير الباحث إلى محاولات المستشرقين اليهود إلى التشكيك، أيضًا، بالأحاديث النبوية، وعلى رأسهم الدكتور كستر، من معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بالجامعة العبرية، والتي تمتدح المدينة المقدسة، وتتحدث عن

فضائلها، وتنوه بفضل مسجدها، وأهميته في الإسلام، أهمها حديث شد الرحال. وقد حاول المستشرق كستر جمع أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ، تتناقض في مضمونها مع حديث شد الرحال، والتي استقاها من مخطوطات ومجاميع لم يتحوط أصحابها في إيراد الأحاديث الضعيفة، التي لا يعتد بها في الصحيحين، ولم ترد في غيرهما من كتب الأحاديث المعتبرة.

يذهب المستشرقون إلى أبعد من ذلك، فهذا المستشرق اليهودي حسون يقر بأن أغلب الأحاديث التي تتناول فضائل بيت المقدس، وتتحدث عن منزلتها في الإسلام قد وضعت في أيام بني أمية، وهو بذلك يريد القول إن القداسة التي أنيطت بالقدس قد نجحت، وترسخت، نتيجة للتطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها المنطقة .

يخلُص الباحث إلى أن العديد من المستشرقين أجهدوا أنفسهم في تأويل النص القرآني، وعمدوا إلى التشكيك في صحة الرواية الإسلامية، التي تربط القدس الشريف بالإسلام، وذلك بهدف التشويش على مكانة المدينة، وقداستها لدى المسلمين، غير أنهم أدركوا، في النهاية، عمق الرابطة، وأن قداستها تزداد رسوخًا في وجدان المسلمين، ومن العسير عليهم، الآن، حياد من هذا الجانب، فاتجهوا بأنظارهم صوب تاريخ المدينة، لعلهم يجدون بين أحداثه دليلًا يدعم توجهاتهم بأن قداسة المدينة لم يكن عليها إجماع، في أي فترة من فترات التاريخ[٢٩].

البعد التاريخي والحضاري

يؤكد السلوادي أن المستشرقين اليهود أثاروا مجموعة من القضايا، التي تتصل بتاريخ بيت المقدس، وحضارتها، منذ بداية فتحها على يد المسلمين (عام ٦٣٧م)، حتى سقوطها في يد الإنجليز بعد هزيمتهم للأتراك العثمانيين، (عام ١٩١٧م). وكان الهدف من إثارة هذه القضايا التدليل على أن المدينة لم تكن لها أي مكانة مميزة في الإسلام، ولم يكن لها أهمية تذكر من الناحيتين الإستراتيجية والإدارية.

يضيف: إن أهم القضايا التي أثارها المستشرقون هي قضية فتح المدينة، وتسليمها للفاروق عمر بن الخطاب.

يفنّد السلوادي ما ذهب إليه مستشرقون من تشكيك في الرواية، التي تؤكد قدوم عمر بن الخطاب لاستلام بيت المقدس، بطلب من صفرونيونس، ويورد بعض المستشرقين روايات عديدة متناقضة، حول الشخص الذي تسلم المدينة، وعقد الصلح مع أهلها. ويرجع المستشرق اليهودي غويتاين رواية كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» التي تنص على أن المدينة سُلِّمت إلى قائد مغمور، لم يبرز بشكل خاص في القتال، هو خالد بن الفهمي، وكان شرط الاستسلام واضحًا، وهو فتح البلاد لسلطة المحتل. يضيف غويتان: «إننا لا نجد في هذه الرواية أي ذكر لنص عهد؛ لأنه لم يكن موجودًا» حسب رأيه. ويشير إلى أشد الروايات انتقاصًا من مكانة المدينة، وهي رواية هربرت يوسه، والتي تؤكد أن عمرو بن العاص هو الذي فتح المدينة، وتسلمها من أهلها؛ لأن عمر لم يدخل الإسلام إلا في العام الثامن للهجرة، كما أنه لم يكن من أكابر الصحابة، وذلك لا يتناسب والمكانة التي تحتلها المدينة، التي أخذت تسمو، شيئًا فشيئًا، وتتطلب أن يكون فاتحها شخصية إسلامية مرموقة.

يؤكد أن الإجماع المعقود بين المؤرخين على أن عمر بن الخطاب قدم إلى حامية الشام، بناء على طلب من أبي عبيدة، ليتسلم المدينة، حسب ما اشترط أهلها، وقد تسلم المدينة، فعلًا، من البطريك صفرونيوس، ودخلها حلمًا،

وكانت زيارته لها من أهم الأحداث التي رافقت الفتح الإسلامي لبلاد الشام، وفي ذلك تجسيد للرؤية الإسلامية الإستراتيجية لمدينة القدس، وهي الرؤية التي جعلت من القدس أحد المحاور الرئيسية لدعوة الإسلام.

القدس والهويّة العربية

أوضح أن المستشرقين كانوا يتطلعون لعزل المدينة المقدسة عن هويتها العربية الإسلامية، بالتدليل على أن الفتح العربي كان مرحلة عابرة في تاريخ المدينة، وأن الوجود العربي فيها إنما كان ثمرة من ثمار هذا الفتح الطارئ، ويؤكد السلوادي أن صلة العرب بالقدس لم تبدأ بتاريخ فتحها، بل إن الصلة قديمة جدًّا، ويستشهد بذلك بذكر العرب كثيرًا في «العهد القديم»، وأن هذه اللفظة أطلقت على نوع من القبائل، كانت تسكن الجزء الجنوبي من فلسطين، بما فيه القدس. وما أثبته العالم الفريدارميا في كتابه «العهد القديم في ضوء الشرق القديم»، حيث قال: إن لفظة «عرب» في النصوص العبرية تدل على بعض أجزاء فلسطين، وبخاصة الجزء الجنوبي فيها، المعروف، أحيانًا، باسم «يهودا»، الذي كان آهلا بالعرب ومن هنا لا يتعدى كونه، في رأي العديد من الباحثين العرب، تحريرًا عربيًّا لأرض عربية، كانت ترزح تحت وطأة الاحتلال الأجنبي.

أضاف الباحث نفسه أن المستشرقين يهود، وكان جل تركيزهم في البحث والتنقيب عن أي خبر أو إشارة تسعفهم عن اختلاق دور تاريخي لليهود في التصدي للعدوان الصليبي، وتشكيل ذلك الدور، وصياغته بطريقة توحي بأنهم أصحاب الأرض، وأنهم تعرضوا للعدوان، ودافعوا عن البلاد، مثلما فعل العرب، فهم يتحدثون، عادة، عن اليهود الذين مكثوا في فلسطين، دفاعًاعن مدنهم، وقراهم، التي هاجمها الصليبيون، وركزوا الحديث على مقاومة اليهود القاطنين في بيت المقدس، واستبسالهم في الدفاع عن المدينة. ويؤكد الدكتور السلوادي بأن اليهود، في تلك الفترة، لم يكونوا مؤهلين للقيام بدور المقاومة، الذي تحاول الدعاية الصهيونية اختلاقه لهم؛ ذلك لأنهم لم يكونوا يعيشون في كيان سياسي مستقل، كما لم يكونوا يملكون الجيوش أو الوسيلة العسكرية التي تمكّنهم من التصدي للعدوان الصليبي، ومن ثم لم يشاركوا المسلمين عبء التصدي والمواجهة، بل هناك شواهد دالة على تواطؤ العديد منهم مع القوات الطارئة.

دحض السلوادي ما زعمه اليهود والمستشرقون من أن القدس لم تكن سوى مدينة صغيرة، معزولة، ومهملة، لم تشد إليها الأنظار، وذلك للتقليل من أهميتها الإسلامية، من الجوانب السياسية، والثقافية، والديموغرافية. وأشار إلى ما كَتبه في هذا الصدد موشيه معوز، شلوموا غويتاين، من أن القدس لم تلعب في الإسلام دورًا مركزيًّا ثقافيًّا بل كانت مدينة جانبية، لا تأثير يذكر لها. واستشهد كذلك بما ذهبت إليه حوا لاتسروس، والتي قالت إن القدس، رغم قدسيتها في الإسلام، لم يقطنها إلا أعداد قليلة، نسبيًّا، حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وأنها لم تثر انتباه رجال الدين والسياسة العربية إلا في العشرينيات من القرن العشرين بعد ظهور النزاع حول (حائط المبكى).

ويرى أن ما استند إليه أحد المستشرقين اليهود، وهو دروري، من عبارة على لسان الرابي عوفاديا، حين زار القدس، عام ١٤٨٨م، والتي يقول فيها: «القدس مدينة خربة مهجورة»! وقد استشهد دروري بهذا بطريقة توحي بأنها حقيقة مسلّم بها، مع العلم بأن الفترة التي زار بها الرابي القدس كانت المدينة تعج بالإنشاءات العمرانية، كالمساجد، والمدارس، والزوايا، والأربطة، والمباني السكنية، وشبكات المياه، التي أقيمت بتوصية من سلطان المماليك

قايتباي، والتي لا تزال حتى يومنا هذا، تشهد، أحيانًا، على المجهودات العمرانية الضخمة التي نهض بها المماليك في القدس الشريف[٣٠].

مشاعر قادة الحركة الصهيونية الحقيقية تجاه القدس

من المفارقات الغريبة في تعاطف اليهود مع القدس أن قادة الحركة الصهيونية ومفكريها وأدباءها كانوا، من ناحية عاطفية، يكرهون القدس، ويعبرون عن ذلك، صراحة، لدرجة تثير الاستغراب، مقارنة مع ذلك التشدد الذي أبدته الدوائر الصهيونية، في كل ما يتعلق بمستقبل المدينة السياسي. تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية، زار، أواخر القرن التاسع عشر، القدس، وتجول في شوارعها، وبعدما عاد إلى أوروبا، كتب خواطره الخاصة، حول ما شاهده في المدينة، فقال، كما يروي المؤرخ اليهودي أفيشاي ريجمان: « مدينة أشباح، تلك التي يقدسونها، لقد كرهتها، منذ أول نظرة، لا أدري كيف يطيقون العيش فيها، كل ما فيها يثير التقزز، لم أشعر بأنني، في يوم من الأيام، يمكن أن أحن إليها، من هذا الكذّاب الذي روى لنا أن في هذه المدينة سحرًا أخاذًا؟! من هذا الكذاب الذي روى أن رائحة القدسية في جبالها تزكم الأنوف؟ أي شعراء أفاكون أولئك الذين تغنوا بتلك المدينة الملعونة ؟ لا جمال هناك، لا سحر هناك، لا قدسية هناك، حاخامات في حائط المبكى تدور رؤوسهم كما الرحى، منظر يثير الاشمئزاز لعيون ترقب منظرًا آخر، مع أنني أقول، في العلن، إن تلك المدينة المقدسة، التي صلى اليهود، منذ ألفي عام، لكي يعودوا لها، وحلموا بأن يكونوا في قلبها، وأطرافها، وسأظل أقول ذلك، إلا أنني كدت أشعر بالاختناق، عندما شاهدتها من بعيد، ولأنني سياسي لا مجال للعاطفة في التأثير على تفكيري، ولأنني يهودي، يهدف إلى تحقيق حلمه القومي، فالقدس هي قلب الخطاب الصهيوني، فسأبقى أكرر أن القدس هي قلب الشعب اليهودي النابض، ومحط أنظار أبنائه في كل بقاع المعمورة، لكن في الحقيقة فإنني لا أقبل بالقدس كنعال لي».

أما الكاتب اليهودي الفرنسي، جاك فابيوس، الذي زار القدس، بعد حرب عام ١٩٦٧، بعدما سقطت في أيدي الصهاينة، وكان من أكثر المنظّرين للفكر الصهيوني، فيعترف بأنه لم ير أي أثر لذلك الحنين، الذي تحدث عنه اليهود للقدس، ويقول، في رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه من نشطاء الحركة الصهيونية: «سأظل أقول لأطفالي إن القدس لنا، وسأظل أقول لهم هلموا للقدس، وسأظل أدافع عن حقنا بالاحتفاظ بالقدس إلى أبد الآبدين، لكن صدقني: إنني لم أطق أن أظل فيها ساعة، لن أعود هناك، لن أعيش فيها أبدًا، سأبقى أتغنى بها أمام الجماهير اليهودية، وسأظل أحكي لليهود الذين لم يهاجروا بعد عن سحر القدس، وجمالها، لكنني أعرف أنني أخونهم ، أيما خيانة».

لم يقتصر تعبير قادة ومفكري الصهاينة عن «كرههم للقدس» على خواطرهم الخاصة، التي كانوا يبوحون بها لأصدقائهم المقربين، بل تعداه إلى مجاهرة بعض الشعراء والمفكرين اليهود بكرههم للقدس، علنًا، والتعبير عن ذلك شعرًا، ونثرًا، وعلى صفحات الجرائد. يستغرب الشاعر اليهودي إبراهام جينوم أن يعقد أحد ما أي مقارنة بين القدس وتل أبيب، ويستغرب أن يترك أحد تل أبيب، ويتجه إلى القدس، ففي قصيدة نظمها، أوائل الثمانينيات، تحدث جينوم عن مشاعره نحو القدس وتل أبيب، ويقول: «تحدث أيها الأبله ما شئت عن القدس، فهذا ليس يعنيني، لست في حاجة للاستماع لتلك الترهات، دعك من هذا الحديث الفارغ، عن القدسية، والسحر، فهذا طعام الجهلة والمخبولين، أما أنا فاذبحني في تل أبيب، نعم في تل أبيب، أريد أن أحيا، في تل أبيب، أريد أن أمرح، في تل أبيب، أريد أن أسكر حتى الثمالة» [٣١].

الساسة يعترفون

يروى أن الساسة الصهاينة، المعاصرين الذين بالغوا في الحديث عن القدس، كانوا يكنون مشاعر أخرى للقدس، إذ إن رئيسة وزراء الكيان الصهيوني السابقة، جولدا مائير، كانت تقول في مجالسها الخاصة: إنه لو ترك الأمر لها لما وطأت قدمها أرض القدس، على الإطلاق، وإنها عندما تطأ أرض القدس يصيبها الانقباض، والضيق، والضجر. أما إسحاق رابين، والذي يوصف لدي اليهود بأنه: «الذي حرر القدس» لأنه كان «رئيس أركان الجيش الصهيوني» في عام ١٩٦٧، عندما نشبت الحرب، يقال إنه كان يقول إنه على الصعيد الشخصي ولو تجاهل الاعتبارات السياسية لأبقى على مقار الحكومة «الإسرائيلية» في تل أبيب، وليس في القدس، ويقال إنه كان يفضل الحضور بشكل كبير في مبنى وزارة الدفاع، وليس في مكتبه برئاسة الوزراء؛ لأن وزارة الدفاع توجد في تل أبيب، أما وزير الدفاع الصهيوني الأسبق، موشيه ديان، فكان يجاهر بكرهه للقدس، حتى أمام قادة الأحزاب المتدينة، وكان يسخر من أولئك الذين يتركون تل أبيب، ومدن الوسط ويقدمون للعيش في القدس[٣٢].

الخاتمة

انفردت القدس، من بين كل المدن، والأمكنة في العالم، بأنها صارت الملتقى الروحي لأبناء الديانات الإبراهيمية، وصعيدها المقدس.

إن القدس، علاوة على مكانتها الدينية، التي لا تزاحمها فيها أية مدينة أخرى، تحمل قدسية ومكانة قومية، وإن كنت لا أجد أية بقعة فلسطينية، وعربية، صامدة في وجه الصهيونية، بوجه خاص، أو أية بقعة صامدة في وجه الاستعمار والظلم، بوجه عام، أقل قدسية منها، إلا أنها تظل رمزًا لمصير الصراع العربي ـ الصهيوني.

هذه الحقيقة الإلهية الخالدة جاءت تنبه كل مؤمن من مخاطر الفكر اليهودي القائم على العنصرية والحقد، في جانبه الديني، أو السياسي.

إن القدس وما يتهددها من مخاطر تعد حلقة رئيسية في ملف المخاطر الكثيرة التي يحملها المشروع الصهيوني، المدعوم أمريكيًا.

ويستدعي الأمر جملة خطوات في إطار المواجهة والمقاومة: عرض هوية القدس، وطبيعتها، وموقعها، وشرح ذلك لأجيالنا العربية، ولكل مسلم، ومسيحي، في العالم، ويكون ذلك من خلال الدراسات، والأبحاث عن القدس، ماضيها، وحاضرها، وأن تتولى ذلك هيئات ومراكز حكومية أو أهلية على أن تتوفر هذه الدراسات بلغات عدة تحقيقًا للفائدة.

شرح العقيدة الدينية المزعومة والأطماع الإسرائيلية بالقدس، والأطماع عمومًا لتعطيل مفاعل الدعايات الصهيونية القائمة على التضليل والتزوير والأباطيل.

تعزيز التضامن الإسلامي ـ المسيحي، عربيًا، ودوليًا، من أجل ردع خطر التهويد عن المدينة المقدسة، عند الفريقين.

هوامش الفصل الأول:

(١) هنري كتن، **القدس**، ترجمة إبراهيم الراهب، ط١، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ١٩٩٧، ص ١٠.

(٢) سمير جرجس، **القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد**، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١، ص ١٨١.

(٣) فايز فهد جابر، **القدس، ماضيها حاضرها مستقبلها**، ط١، دار الجليل، عمان، ١٩٨٥، ص٥٧ .

(٤) يوسف القرضاوي، **القدس قضية كل مسلم**، انظر الموقع الإليكتروني. www.qaradawi.net . (قسم الكتب).

(٥) يواكيم مبارك، **القدس قضية**، ترجمة مهاة فرخ خوري، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٦، ص ٧٩.

(٦) محمد مصطفى الباش، **القدس بين رؤيتين**، دار قتيبة، دمشق ـ بيروت، ١٩٩٧، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٧) القرضاوي، **مصدر سبق ذكره**.

(٨) مصطفى الطحان، **القدس والتحدي الحضاري**، انظر الموقع الإليكتروني.

www.daawa-info.net

(٩) القرضاوي، **مصدر سبق ذكره**.

(١٠) جاسم بن محمد مهلهل الياسين، **القدس قضية أمة**، انظر الموقع الإليكتروني.

www.daawa-info.net

(١١) كتن، **مصدر سبق ذكره**.

(١٢) **مجموعة الشرع الكنسي أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة**، جمع وتنسيق وترجمة الأرشمندريت حنانيا إلياس كساب، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٩.

(١٣) القاضي محيي الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج١، عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣، ص ٢٤٠.

(١٤) **إنجيل يوحنا**، الإصحاح التاسع، آية ٦، ٧.

(١٥) **إنجيل مرقص**، الإصحاح الحادي عشر، آية ١٥، ١٦.

(١٦) أبو جابر رؤوف سعد. **الآثار والمقدسات التوراتية في القدس والمحافظة عليها**، في يوم القدس، أبحاث الندوة الرابعة ٢/ ٥ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٣، عمان، ص ١٩١.

(١٧) أحمد مخيمر، **تحسين العلاقة بين الفاتيكان واليهود**، انظر الرابط الإليكتروني

http //: www.islammessage.com /articles.aspx?cid=1 & acid= 123&aid=2440

(١٨) فوزي الأسمر، **الكنيسة الأرثوذكسية وبيع الأراضي العربية**، انظر: الموقع الإليكتروني

.com.alriyadh.www

(١٩) **المصدر نفسه**.

(٢٠) **المصدر نفسه.**

(٢١) أحمد جميل عزم، **هل يريد اليهود الأصوليّون السيادة على القدس؟** انظر الموقع الإليكتروني

www.amin.org

(٢٢) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، المجلد الثالث، دمشق، ط ١، ١٩٨٤، ص ٥١٠.

(٢٣) أحمد الشحات، القدس **في الرواية العبرية المعاصرة** ١٩٦٧ - ١٩٩٢، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥، ص ٥ .

(٢٤) عزم، **مصدر سبق ذكره.**

(٢٥) محمد خليل مصلح، **القدس في الخطاب السياسي الإسرائيلي**، الأسرى للدراسات والأبحاث الإسرائيلية. انظر: الرابط الإليكتروني
http: / /www.alasra.ps /news.php?maa- View&id=56

(٢٦) نافذ أبو حسنة. **بيت المقدس، المحاولات اليهودية المبكّرة للسيطرة على حائط البراق.**

انظر: الموقع الإليكتروني www.palestine-info.info-

(٢٧) محمد سليم العوّا، **خرافة حائط المبكى عند اليهود**، انظر الرابط الإليكتروني.

htm.almabka /tahweed /alquds /arabic /info.info-palestine / /:https .

(٢٨) المركز الفلسطيني للإعلام، **المستشرقون اليهود يحاولون التهوين من قدسية القدس ومكانتها في الإسلام.** انظر: الرابط الإليكتروني

htm.almustash /muslims /alquds /arabic /info.info-palestine / /:https

(٢٩) **المصدر نفسه.**

(٣٠) **المصدر نفسه.**

(٣١) المركز الفلسطيني للإعلام ، **مشاعر قادة الحركة الصهيونية الحقيقية تجاه القدس.** انظر: الرابط الإليكتروني

http: / /www.palestine-info /info /arabic /alquds /mukhtarat /mashaer.htm

(٣٢) **المصدر نفسه.**